الفصل الثاني

المقصود بالنظام الاجتماعي

كعنصر من عناصر الحضارة الإسلامية

المجتمع عبارة عن تكوين بشري ، اجتمع أفراده في بقعة معينة من الأرض ، بفعل عوامل شتى، منها الأواصر والوشائج العرقية ، ومنها المصالح التي يحصل عليها الفرد من انتمائه إلي ذلك التكوين ، مثل الشعور بالأمن والاستقرار ، وهو في سبيل ذلك يضحي ببعض حقوقه مثل الحرية المطلقة .

وقد تطور المجتمع الإنساني منذ وجوده عبر أطوار عديدة ، إلي أن وصل إلي ما هو عليه في وقتنا الراهن ، ولعل أرقى ما وصل إليه المجتمع البشري هو الدولة . ذلك الكيان الاعتباري المنظم الذي ينقسم فيه المجتمع إلي حكام ومحكومين ، ولكل من القسمين مهامه وواجباته ، وله في ذات الوقت حقوقه وصلاحياته ، وبداخل المجتمع البشري نشأ ما يعرف بالنظام الاجتماعي . وهو عبارة عن ترتيب وتوزيع للقوة والنفوذ بين أفراد المجتمع وفئاته . عن طريق وسائل خاصة قد تكون الإلزام القانوني ، وقد تكون النسق القيمي . بما ينتج عنه شبكة من العلاقات والتفاعلات الرسمية وغير الرسمية ، تشكل مع الزمن كلاً واحداً وكياناً قائماً بذاته . له صفات وخصائص مميزة . ومن هذا التعريف يمكن التقاط بعض العناصر علي النحو التالي :

أولاً : ترتيب وتوزيع القوة والنفوذ :

كل مجتمع . بدائياً كان أم متحضراً ، يمتلك جملة من المقدرات والمكنات المادية والمعنوية ، فالأولى أي المادية تعرف بالقوة مثل المال والسلطة الرسمية ، والثانية أي المعنوية تعرف بالنفوذ مثل الجاه والعلاقات وولاء الآخرين . وهاتان الميزتان يتم توزيعهما بين أفراد المجتمع وفئاته .

ثانياً : وسائل توزيع القوة والنفوذ :

القوة والنفوذ هما صلب وقوام النظام الاجتماعي ، بناءً علي توزيعهما يتحدد شكل النظام وتتوزع القوة بداخله ، وثمة وسيلتان لتوزيع القوة والنفوذ داخل المجتمع ، الوسيلة الأولى : حيث يتم التوزيع عن طريق الإلزام الرسمي بقوة القانون أو ما يعرف " بالسلطة الرسمية " حيث تُوزع المناصب والمراكز وتُخصص القيم والموارد ، الوسيلة الثانية : حيث يتم التوزيع عن طريق نسق القيم المعمول به والمعترف به من قبل أفراد المجتمع ، وبناءً علي هذا النسق القيمي تتوزع القوة والنفوذ داخل المجتمع ، فالمجتمع الذي تسود فيه قيم مثل العلم والتقوى، يفوز فيه العلماء والمصلحون بنصيب وافر من النفوذ وربما القوة ، والمجتمع الذي تسود فيه قيم الإخاء والمساواة والعدالة نجده لا يعاني من الطبقية ، ويسود فيه السلام الاجتماعي والاستقرار العام ، ويتوزع فيه القوة والنفوذ علي أكبر قدر ممكن من أفراده .

ثالثاً : معايير توزيع القوة والنفوذ :

أما عن معايير توزيع القوة والنفوذ فهي عديدة ، وتختلف من مجتمع إلي آخر ، وهي أي المعايير عبارة عن مجموعة من المقدرات ، من يحوزها أو أكبر قدر منها ، يستحوذ علي أكبر قدر من القوة والنفوذ ، ويتمثل أهمها في الآتي :

❖ الولاء للحاكم :

من أهم معايير توزيع القوة والنفوذ في المجتمعات الإنسانية علي مر العصور هو معيار الولاء للحاكم ، وثمة علاقة طردية بين نسبة الولاء وحجم ما يحصل عليه الفرد الموالي من القوة والنفوذ ، وأكثر الأشخاص والطبقات ولاءً للحاكم هم في ذات الوقت أعظمهم استحواذاً علي القوة والنفوذ والعكس بالعكس ، ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا النادر .

❖ القوة والمكنة :

يأتي في المرتبة التالية معيار القوة والمكنة ، وهو من المعايير المهمة الذي يعتد به في توزيع القوة والنفوذ داخل المجتمع ، ويقصد بالقوة والمكنة ما يحتكم عليه الأفراد والجماعات من قوة مادية : عدد أفراد ، أو غنى وثروة ، أو عراقة أصل ونسب ، أو قوة معنوية مثل : المقدرة علي القيادة والزعامة ، وتحريك جموع المواطنين، أو الانتساب إلي أصول دينية ، كل ذلك يعّول عليه في توزيع القوة والنفوذ داخل المجتمع ، فأكثر الأشخاص والجماعات استحواذاً علي القوة والمكنة هم أكثرهم وأوفرهم حظاً من القوة والنفوذ .

❖ العلم والمعرفة والصلاح :

يأتي في المرتبة الثالثة معيار العلم والمعرفة والصلاح ، وهي مجموعة فضائل غير مادية ، إلا أنها يعّول عليها في توزيع القوة والنفوذ في المجتمع ، وتساهم بالتالي في تشكيل النظام الاجتماعي ، ويختلف تقدير واعتبار هذا المعيار من مجتمع إلي أخر ، فمن المجتمعات ما يعّول عليه ، ويمنحه مرتبة متقدمة في سلم تفضيل معايير توزيع القوة والنفوذ ، وفي هذه المجتمعات يتمتع أهل العلم والمعرفة والمصلحون بنفوذ واسع ، وقد يستحوذون علي قوة مادية لا بأس بها ، ومن المجتمعات ما يتعامل معه باهتمام أقل ، وتعطيه مرتبة متأخرة في سلم تفضيل معايير توزيع القوة والنفوذ ، وفي هذه المجتمعات لا يتمتع أهل العلم والمعرفة والمصلحون بحظ وافر من القوة أو النفوذ .

رابعاً : شبكة من العلاقات الرسمية وغير الرسمية :

ينتج عن توزيع القوة والنفوذ شبكة من العلاقات الرسمية وغير الرسمية داخل المجتمع ، فتنشأ علاقات رسمية بناء علي ما لدى كل فرد أو جماعة من القوة والنفوذ ، كما تتحدد مكانة الشخص أو الجماعة داخل المجتمع ، وهي ما تعرف بالمكانة الاجتماعية علي

أساس ما لديهم من قوة ونفوذ ، كما تنشأ كذلك علاقات اجتماعية غير رسمية ، استناداً إلي حجم القوة والنفوذ التي لدى الأفراد والجماعات ، وهذه الشبكة من العلاقات الرسمية وغير الرسمية تمتد فتتلاقى وتتقاطع في خطوط رأسية وأفقية كثيفة ، بما يؤدي إلي نشوء مصالح وعلاقات متداخلة ومترابطة لكل فرد أو جماعة .

خامساً : طبقات وشرائح [الحراك الاجتماعي] :

ترتيباً علي عملية توزيع القوة والنفوذ . ومن نسيج شبكة العلاقات الرسمية وغير الرسمية تنشأ عملية الحراك الاجتماعي ، حيث تنشأ طبقات وشرائح جديدة أو تتحرك طبقات وشرائح موجودة في سلم ترتيب الطبقات الاجتماعية صعوداً أو هبوطاً ، فترتقي طبقات لسبب ما حازت من قوة ونفوذ وتهبط أخرى بسبب ما فقدت من قوة ونفوذ وهكذا .

سادساً : كيان اجتماعي ذو خصائص مميزة :

من جملة التفاعلات المترتبة علي عملية توزيع القوة والنفوذ ، ومن خلال شبكة العلاقات الرسمية وغير الرسمية ، ومن حركة الطبقات والشرائح التي تظهر أو تختفي ، والتي ترتقي أو تهبط ، يتشكل النظام الاجتماعي في شكل كيان واحد متماسك يحمل صفات وخصائص مميزة .

النظام الاجتماعي بالوصف المتقدم كان دائماً وعلي مر التاريخ من أهم مقومات وعناصر الحضارة الإنسانية . فالحضارات الإنسانية نظرت إلي النظام الاجتماعي ، وتعاملت معه علي أنه أساسها الذي عليه نشأت وارتكزت ، وهو محركها ومحفزها ، وقوتها الدافعة نحو التقدم والترقي ، وهو كذلك هدفها الذي من أجله تجتهد وتعطي ، وعليه فقد كان النظام الاجتماعي دائماً بؤرة اهتمام الحضارات الإنسانية ومحور تحولها وتطورها .

ويختلف الأمر بالنسبة للحضارة الإسلامية ، حيث يتحدد للنظام الاجتماعي من البداية موقعه وأهميته في منتظم عناصر ومقومات تلك الحضارة ، وذلك التحديد يرتكن علي الطابع الخاص لتلك الحضارة ، والأسس والأصول التي تتمركز عليها وتنطلق منها ، فالحضارة الإسلامية ذات طابع خاص ، يجعل من الوازع الديني والبعد الروحي الأخلاقي غلافاً يغلف كل أسس الحضارة ومسارات حركتها وأهدافها ، وطابعاً يصبغ كل تلك المرتكزات ، كذلك فأسس وأصول الحضارة الإسلامية تتمركز علي مسلمات رئيسية ، قوامها أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون وسخره للإنسان ليعمره وفق شرع الله وسنته وناموسه ، أما مسارات حركة الحضارة الإسلامية ، فتعمل وفق إرادة الله ومشيئته ، التي تنتهي بالإنسان إلي الخير في الدنيا والنعيم في الآخرة ، وذلك إذا توافق مع شرع الله وأخذ به في كل أموره وتصرفاته ، وبالنسبة إلي غايات ومقاصد الحضارة الإسلامية فهي تلتقي دائماً مع الغاية والهدف التي من أجلهما خلق الله الإنسان وسخر له الكون وهما عبادة الله وطاعته ، هكذا يكون طابع الحضارة الإسلامية ، وتكون أسسها وأصولها ، وكذا مسارات حركتها ، وأخيراً غاياتها ومقاصدها .

أين إذن موقع النظام الاجتماعي كمقوم وعنصر من عناصر تلك الحضارة ، يظهر النظام الاجتماعي في موقع بارز علي خارطة الترتيب الخاص والتنظيم المميز للحضارة الإسلامية ، فيبدو أولاً النظام الاجتماعي كأحد مسارات حركة الحضارة الإسلامية ، حيث يتم تشكيل النظام الاجتماعي بالشكل والهيئة التي تحقق الحياة الطيبة ، من خلال نسق قيمي رفيع المستوى ، تتضافر وتتكاتف فيه القيم السياسية والاقتصادية والإدارية والاجتماعية والفكرية لإخراج مجتمع المتقين ، الذي تسوده الحياة الطيبة والسلام والاستقرار ، ثم يبرز ثانياً النظام الاجتماعي كمقصد وغاية للحضارة الإسلامية ، حيث تسعى لإعداده وتهيئته حتى يمكّن أفراده من عبادة الله التي خلقوا من أجلها .